كانت أمي تغني ...

قصة بقلم سلوى اسماعيل عبده

ـ اتذهبين ؟!

رفعت الفتاة رأسها في بطء وقد اختلج جفناها وارتعشت يداها اللتان كانتا تضعان اشياءها في حقيبة سفر كبيرة ، نظرت في عيني أمها الداكنتين وتراجعت بهما مسرعة الى اشيائها وقد اجتاحها رعب مفاجيء، شيء ما يشدها الى تلك الاعماق الداكنة ، قالت بصوت ضعيف :

ـ كان لابد ان يحدث هذا في يوم ما يا اماه !

صمتت قليلا وهي تحاول ان تبلل شفتيها الجافتين بلسانها ثم عادت تقول بصوت متخاذل :

ـ اليوم او غدا !

ثم القت نظرة جانبية الى امها . وكانت الام تنظر الى يديها بينما نمت الاحزان في وجهها الرقيق .

وهمست الفتاة لنفسها في حزن :

ـ يدان خصبتان كانتا دائما تصنعان الأشياء الجميلة !

ثم سمعت امها تقول بصوت عميق مفعم بالمرارة :

ـ ماكنت لاصدق انه سيأتي ذلك اليوم الذي يصغر فيه عالمي ،حتى لاتبقى لي فيه الا الاشياء الباردة الجامدة ، واصواتكم الصغيرة تملأ اذني ، كنت كلما سمعت صراخ اطفالي حينما تناديهم الحياة ارى الارض تموج بصغاري الذين سيظلون صغاري يصرخون من اجلي دائما ..

وضعف صوتها حتى بدا وكأنه آت من بعيد ، ثم صمتت وسكن كل شيء في اعماقها بينما سرحت بعينيها عبر النافذة . كان كل شيء يبدو لامعا ، كانت تغني تلك الاغنية الجبلية الشامخة ..

فيما مضى كانت امي تغني ذلك الصوت الذي يخرج من اعماق الارض الطيبة يرتفع يرتفع شاهقا .. كانت الدنيا تموج بالبشر حينما تغني امي !

ـ جاء ليأخذك ذلك الرجل ؟!

ارتفع صوتها فجأة محتدا : ـ هكذا بسرعة ، أصغر من تبقى لي ؟!

واغمضت الفتاة عينيها واخفت وجهها الشاحب بيديها وهي تهمس لنفسها :

ـ لست اول من ذهب يا امي ، انك لاتكفين عن العويل ؟! الا تأمين احزانك ؟ سأتزوج ذلك الرجل !

وعادت لتنظر في عيني امها في ثبات ، وتاهت نظراتها في تينك العينين العميقتين ، كان هناك في اعماقهما قنديل خافت النور ، كانت الاحزان العتيقة ترتعش في ظلاله الخافته وكان قلب الفتاة ينبض بالاسى بينما شفتاها ترددان في همس :

ـ هاتان العينان لايسع الانسان الا ان يتردد امامهما طويلا ، دائما تتحدثان دائما تبصران بشدة ، خلف اعماقهما يمتد عالم مثقل بالالوان حاد الملامح ، لا استطيع الا ان اكون مجهدة كلما جذبتني تلك الاعماق الرهيبة .

ثم نظرت عبر النافذة وسقطت اشياؤها من يدها وعادت تهمس برفق :

ـ ذلك الرجل الذي عبر الوجود الي بقدميه العاريتين الثقيلتين ذلك الانسان العملاق الذي شق الجبل ، وملأ كهوفه بالخصب والنماء ، ووقف بباب بيتنا تطل من رأسه عينان ذكيتان مخلصتان !

وارتفع صوتها بينما دنت من امها ممسكة بيديها :

ـ أمي ، لقد كانت قشوري تتساقط ، اصبحت عارية بلا استار ، كانت يداه تمسكان بوعاء الماء بقوة ، وكان يشرب الماء بطريقة فذة توحي اليك بالظمأ الذي لا نهاية له ، وكان شيء لامع ينمو في عينيه ، وكنت ارى دماءه تجري في عروقه حارة عنيفة ، شيء ما يستطيع الانسان ان يحيا من اجله ياامي ، كانت دماؤه لا تستطيع ان تنسيني الارض الصلبة التي أقف عليها . ان يستطيل الانسان فوقها شامخا : أمكانية ضخمة عنيدة !

ارتدت الام بظهرها الى الوراء وظلت عيناها سابحتين في ذلك العالم الشاسع عبر النافذة ، كانت الاشجار كثيرة ولكنها متخاذلة قديمة تنمو لاتكاد ترتفع حتى تلتوي عروقها نحو الارض .

وقالت بصوت خافت مليء بالرثاء :

ـ كانوا يستطيلون ، ولكن سرعان ماتشدهم الارض اليها ثانية !

وارتد بصرها الى ابنتها : كانت دموع شفافة تلمع في مآقيها . وهتفت :

ـ ذهبوا ، ذهبوا جميعهم ، كل اختار طريقه ، ولكنهم ذهبوا،كانت عيونهم اكبر مافي حواسهم ، كل ذلك لم يجد شيئا والتصقوا بالارض .

هبت نسمة باردة بينما تدافعت سحابات سوداء في الفضاء .

فارتعدت الام قائلة : ـ هاتي شالي ، أعطيني شالي .

والتف الشال حول كتفيها وهي تقول :

ـ كانت يداي عاجزتين عن صنع شال مشرق ، كان لابد ان يكون قاتما . وكان ابوك لايحب الاشياء الزاهية ، لم يكن ابوك يعرف مايريد : كانت يداه تنغرسان في الارض وعندما تنمو الاشياء الخضراء يسحقها وهو يقول حزينا : ـ كان يجب ان تنغرس يداي في الارض بقوة ، ولكن لتمت هذه الاشياء ، انها ضعيفة لاتصلح للبقاء . وفي احد الايام كانت على ظهره حقيبة وفي قدميه نعل شاحب ، ثم عاد في صيف شديد الوهج وقد فقد اثقاله وذبل شموخه ، وكان الصغار يكبرون ، وكانت الاحزان تنبت في عينيه ،وكان يردد بمرارة : خدعنا ! خدعنا ،قالوا ان كل هذا النماء من اجلنا ولكن خرافهم اكلت هذا الخصب . وكان يختفي ثم يعود اشد شحوبا ، والبيت يرتفع فوق الارض ، ثم يسوي بها ،وذات يوم شاحب كانت دماؤه تبتلعها الارض ثم انتهى كل شيء !

وامتدت يد الفتاة تحنو برفق على كتف امها هامسة :

ـ كان لابد لهذا ان يحدث .

ـ وارتفعت يد كبيرهم لتنشر ظلالها فوقكم وتحميكم من صهد الشمس ، وامتدت الارض امامه تحت السماء شاسعة ، كانت الفأس ترتفع بقوة ثم تهبط الى الارض متخاذلة : « لابد ان تكون هناك امطار ، لن تخصب الارض الا بالماء ، لابد ان تكون هناك غيوم كثيفة فوق » كان يردد هذا لاهثا ، وكانت ركبتاه ملتصقتين بالارض دائما . وكانت الارض كبيرة صفراء ، وكان طموحه قديما منذ ان وجد ، ولكن العالم شديد الكبر ، وكنتم صغارا ، أفواهكم لاتموت في وجوهكم . من اجل ان تعيش هذه الابدان لابد ان يأتي المطر .

وذات يوم كانت الفأس تنقب الارض ، وكان جبينه يلمع تحت شعره الفاحم ، سقط المطر وكبر الصغار ، وكانت عيناه تتطلعان الى الجنوب ، وكان يهمس دائما .

ـ سيعود قريبا .. اخوكم وستنتهي شيخوختي ، وفي فجر رمادي شاحب قالوا لقد طارت قدماه في الفضاء وانتهى كل شيء . فالتصقت

ركبتاه بالارض وعادت الفأس ترتعش من جديد !

شحب وجه الفتاة بينما كانت يداها تخرجان اشياءها من الحقيبة ثم تعيدانها بغير انتظام واغمضت عينيها قائلة لنفسها في همس :

ـ اجل اذكر ذلك ، يا امي التعسة ، اذكره جيدا . كان يريد ان يكون اكثر ثباتا من ابي ، وفجأة شاخت عيناه ثم ذهب ليبحث عن الماء الذي يصنع السحاب ، وحتى الان لم يعد ، واختفت ظلاله ، اجل ،اذكر ذلك :

ورددت الام بصوت ضعيف :

ـ يبحث عن شيء لا وجود له في عالم يصنع الخصب بدون السحاب .

ثم هزت رأسها في يأس ، وجمدت عيناها في الافق البعيد ، كانت أمي تعرف الغناء ، وكان صوتها ينتشر في بيتنا قويا عنيدا ، ولكن الاحزان أضاعت صلابتها ، وفجأة انقطع الغناء من بيتنا : كان ذلك في امسية حارة لزجة .

وتململت الام في مقعدها قائلة بصوت حاد :

ـ جيل ضائع تعس ، كان ثالثكم حائرا بين الارض والسماء ، ولكنه كان دائما ينظر خلفه في فزع ، وذات يوم ذهلت عيناه عن وجوده والتصقت بالسماء ، كان يصرخ دائما : « السم ! السم ! يضعون السم لي في كل مكان تقلقهم نضارتي ! »

سارعت الفتاة الى النافذة وضغطت على حافتها بشدة ونظرت الى الارض الممتدة امامها . هناك اعشاب صغيرة تنمو في ظلال تلك الاشجار العتيقة المتهدلة ، فتنهدت برفق وكانت تسمع صوت امها وكأنه آت من كهف مهجور :

ـ لقد انفصل عن دنيانا .. كانت له اوهامه ، كان يصنع عالمه بنفسه ، وكان هناك اشخاص واشباح ، لم يعد منا ، اتدركين معنى ان يموت الانسان وهو لم يزل على قيد الحياة ؟

وتراكمت السحب وهبت ريح عاصفة تقلقلت من جرائها الاشجار العتيقة ، وارتفعت يدا الفتاة مضمومتين الى صدرها وانتشرت اضواء المغيب في الافق الغربي .. فالتمعت عيناها وتسرب الانتعاش الى جسدها .

ـ سيحضر عما قليل .. سيكون كل شيء على مايرام ، سيطلب الماء وسأحس بالظمأ الشديد الى وجودي ، ان احزان امي تكاد تنشر ظلالها فوق عالمي ، قصتها الطويلة لم تنته بعد ، ولكن الالام تخفت في النهاية .. لم تنته ولكنها اصبحت مألوفة عندما تصبح الاحزان شيئا مألوفا تتحول الى تاريخ ! (وارتعدت فزعة ثم همست) لا .. عما قليل سيحضر !

وعادت الام تتكلم فهتفت الفتاة مقاطعة :

ـ أمي .. أمي هلا غنيت تلك الاغنية العنيدة ، تلك الاغنية التي تنبعث من جوف الارض الطيبة ؟

شحب وجه الام وارتعدت شفتاها قائلة :

ـ لقد سئمت قصتي ، ولكنك ستذهبين .

وتشبثت الفتاة بذراعي امها هانفة بضراعة :

ـ أمي تلك الاغنية التي تتحدث عن ذلك الجبل المرتفع حتى السماء، سأرحل وانا اسمعها تنبع من هذا القلب الكبير الحزين ، قلبك الذى صنع الحياة لنا ؟!

ـ اذن سترحلين ؟

ـ لابد ان يكون هناك مانحيا من اجله .. امي هذه الظلمة ، هذه النافذة التي تنفتح على ذلك العالم الفاشل الذليل ، هذه الاشجار التي لا تستطيع ان ترتفع دائما تنغمس فى التراب ،انني ارتجف كلما وقعت عيناي عليها ، انها لاتوحي الي الا بالبرودة تسري الى وجودي تجمده انها تكاد تفتك بكل مايمكن ان يجعلني احس بانني كائن انسان ، لااستطيع ان اقف مكتوفة اليدين امام هذا العالم الكئيب الذي يزحف الىوجودي ستأتين معي ستتركين هذا المكان لابد ان تتغير الاشياء !

شدت الام شالها الى جسدها بقوة ثم بدا عليها انها تصيخ السمع وجاء صوتها واهنا خائفا :

ـ اسمع خطاه تدق الارض ، لن تتغير الاشياء بهذه السهولة ، لكن قد تتحول الى شيء مضيء ، هذه الخطى الثابتة تملأ اسماعي .

وهبت نسمة باردة وتدافعت السحب القاتمة عبر الفضاء ، سارعت الفتاة الى النافذة والتمعت عيناها وهتفت بصوت متدفق بالبشر :

ـ امي ، انه هو : لقد جاء ، سنذهب معا ، ستتركين هذه البرودة وستأتين .

لم تجب الام واندفعت الفتاة نحوها تحضنها بشدة :

ـ امي لن اتركك تتعفنين هنا !

كانت الام مغمضة العينين ، وكان على الوجه ظل ابتسامة ساخرة وقالت بصوت فاتر :

ـ لن اهرب من وجودي !

شحبت الفتاة :

ـ اهرب ؟!

والتمعت في ذهنها الاعشاب الصغيرة التي تملأ الارض حولها ،وخيل اليها انها تشم رائحتها القوية النفاذة ، وهزت رأسها بشدة ، وقالت لنفسها بحدة :

ـ لن يحول هذا الحنين دون ذهابي ، هذا الحنين المجنون الذي بدأ ينتشر في جسدي اليك أمي ، الى بيتنا الى ارضنا واشجارنا العتيقة ، كلما دنت خطاه امعن قلبي في الحزن ، انني أمقت هذا الحب البدائي ، سأذهب بملء ارادتي وقواي ، لا حيلة لي في ذلك !

وفتح الباب : وكانت قامته تسد الباب ، فارتجفت الام قليلا ثم نظرت في عينيه باصرار .. كانت رائحة جسده الفتي تعبق في الحجرة، لم تقل شيئا واكتفى بما تتحدث به عيناه المتوقدتان ، وكانت يدا الفتاة تقفلان الحقيبة ، وارتفعت الحقيبة فوق كتفه العريض وتوهج القنديل في عيني الام :

ـ ستتعفنين ياأمي (كانت الفتاة تبكي) . سوف يمتد صوتك خلفنا عبر هذا الوجود ينشر الحرارة والدفء في كل مكان ، ستتعفنين .

ولكن الام ظلت جامدة في مكانها ، وارتفعت عيناها هي اليه وهمست له بحزن :

ـ ماتت الاغنية يبدو انها ماتت ، أمي تعرف ذلك جيدا . لقد انتهى كل شيء .

وصدمها بريق شديد في عينيه ورأت النبت الصغير تحت الاشجار العتيقة وسارت الى جواره ، كانت تملأ اذنيها تلك الاغنية الجبلية الشامخة تخرج من جوف الارض الطيبة .. ثقلت قدماها ثم جثمت فوق التراب ، تضم ذلك الحنين العتيق الى قلبها . وتوقفت خطاه ، وامتدت الارض امامه شاسعة رحبة وارتفعت حرارتها قوية متدفقة في كيانه :

وفي يوم مشرق كانت الفأس تمزق ذلك الشحوب .

لنـدن — **سلوى اسماعيل عبده**

كتـابان خطيران

عارنا في الجزائر — لجان بول سارتر

الجلادون — لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الاداب